قراءة في كتاب غير مقدس

الحياة - ٢٧/٧/٩٨

غسان سلامة*

■ بل قل انه كتيب وحسب، ولكن صغر حجمه، وقلة عدد صفحاته، لا تمنعك من ان تراه على مكاتب الناس المهتمين بمنطقتنا، اينما حملتك قدماك في شوارع واشنطن. ان «الكتاب المقدس» عن مستقبل المنطقة، الذي تقاس عليه السياسات، وتنبع منه الاتجاهات. ويقيني ان الاسابيع المقبلة ستحمل النتيجة الفعلية للصراع المحتدم حوله، بين جماعة ساعية لتحقيق ما جاء فيه، وجماعة تعمل لدفع الافكار التي اطلقها الى سلة القمامة، ومراقبين يتوقعون تطبيق بعض ما جاء فيه وتجاوز الباقي على اساس ان السياسة في منطقتنا غير رحيمة بالافكار المكتوبة، اذ انها تكون قد سبقتها باشواط قبل ان يجف الحبر الذي به كتبت.

الكتاب، وهو بعنوان «بناء في سبيل السلام»، اصبح «مقدساً» في واشنطن، لا لأن الأفكار الواردة فيه جديدة، جدية او جادة. فالتقرير الذي اصدرته مؤسسة بروكنغز في الموضوع نفسه، وفي التاريخ نفسه تقريباً، يفوق هذا الكتيب اهمية علمية، ويتجاوزه في عمق التحليل وبعد النظر في ما يختص بمستقبل الشرق الاوسط انما أهمية هذا الكتيب متأتية في الاساس من هوية موقعيه ذلك ان معظمهم قد قفز الى الصدارة في ادارة بوش الجديدة، اياماً بعد صدور هذا الكتيب. من هنا فمن اراد الاطلاع على افكارهم، وتوقع سياساتهم، لا بد ان يبدأ بقراءة كتيبهم. ومن بين الموقعين الاساسيين على الكتاب، لورنس ايغلبرغر الذي هو اليوم نائب وزير الخارجية، والرجل الثاني في الوزارة، ودنيس روس مدير التخطيط في الوزارة المذكورة والشاب الشديد التأثير، وريتشارد هاس مسؤول الشرق الاوسط في مجلس الامن القومي، ناهيك عن عدد من المستشارين الحائمين حول ادارتي ريغان وبوش من امثال دونالد رمسفيلد وروبرت تاكر وروبرت هانتر، اضافة الى الاميركي اللبناني الاصل بول جرينجي.

يعج الكتيب بالأفكار، وهي ليست دائماً متناسقة في منطقها. انما الفكرة الاهم على الاطلاق، هي دعوة ادارة بوش لعدم التسرع في اطلاق خطة سلام في الشرق الاوسط (بينما تقرير بروكنغز على العكس يدعوها بالذات لذلك). فالمطلوب هو التقدم ببطء وحذر. فالنزاع العربي - الاسرائيلي يعود تدريجاً الى اصوله المحلية، كنوع من الخلاف المحلي شبه الطائفي بين العرب المحليين واليهود، وصنع العجائب السلمية في هذا الاطار غير ممكن، بل هو شبه مستحيل ومن المطوب بالذات ان تقدم الحكومة الاميركية على تشجيع الحوار بين الاطراف المتنازعة او على تنظيمه في المستقبل القريب، لان لا فائدة من ذلك في الظروف الراهنة.

هذا ما لا يجب عمله، اما ما يقتضي البدء به فوراً، وفقاً للكتاب، فهو «تشجيع قيام قيادة فلسطينية تقبل بالتعايش مع اسرائيل». وان حان وقت المفاوضات فيجب ان تكون ثلاثية: اسرائيل وممثلون عن الفلسطينيين والاردن. وبيت القصيد طبعاً هو في هوية «ممثلي الفلسطينيين». والكتيب واضح هنا بلا شك اذ يدعو لتشجيع قيام «قيادة فلسطينية راشدة» ورشدها يتأتى من توصلها لاقناع اسرائيل بالقبول بها. اما منظمة التحرير فقد فشلت مراراً وتكراراً في امتحان الرشد هذا. لذلك يدعو التقرير عملياً لتجاهلها وللتركيز على ان سكان المناطق المحتلة قد استطاعوا اكتساب شرعية سياسية ذاتية من خلال مواجهتهم للمحتل، ومن خلال فقدان صبرهم ازاء منظمة عاجزة عن النصر. لذلك يدعو التقرير الحكومة الاميركية لتشجيع سكان الاراضي المحتلة على امساك مصيرهم بيدهم. وفي الواقع على تجاهل المنظمة!

وتقتضي الخطة ايضاً ان يبتدئ سكان هذه الاراضي بالتخلي عن «العنف واعمال الشغب»، وكأنهم لو تخلوا سيكون لهم مع اسرائيل صوت وموقع. كما يدعو التقرير هؤلاء الفلسطينيين المحليين الى تصور مستقبلهم بطريقة مشروطة في الاساس بامن اسرائيل، وهو المعيار الاساس. وان حصل هذان الشرطان (اي عملياً، ان توقفت الانتفاضة، وان اعترف شعب فلسطين باولوية امن اسرائيل على اي اعتبار آخر) تقوم اسرائيل بتنظيم انتخابات في الضفة الغربية وقطاع غزة وعلى امل ان تخرج من تلك الانتخابات، تلك القيادة المحلية الراشدة السابقة الذكر.

غير ان الكتيب يرى قيام نوع من الكيان الفلسطيني لا محالة، وهو يرى في الاردن يد العراب الذي «سيحمل الكيان» للوجود. اما سورية، فموقعو الكتيب لا يرون لها دوراً، اذ انهم يتهمونها بالرغبة في استمرار التوتر في المنطقة وبالسعي لتوازن استراتيجي مع اسرائيل، وهذا امر ممنوع، نعم انه ممنوع ونقطة على السطر. بل ان موقعي الكتيب لا يخافون من التناقض المفهومي عندما يقررون ان «الحفاظ على تفوق اسرائيل العسكري هو الطريق الوحيد للحفاظ على امن اسرائيل ولتسفيه خيار الحرب العربي». وكان العرب مطلوب منهم القبول بهذا التفوق دون الدخول في اية محاولة لردم الهوة العسكرية والتكنولوجية، وكان سباق التسلح ليس مصاحباً للبؤر المتوترة في الشرق الاوسط وغيره وكان ثمن فتات تنازلات لسكان الضفة والقطاع قبول عربي شامل ودائم بقيام جبار عسكري اسرائيلي عات في قلب الجغرافيا العربية. اما على الساحة الدولية، فيدعو الكتاب عملياً الى عزل سورية الاقليمي والدولي، وضمناً الى منع الاوروبيين من التدخل في الشرق الاوسط اما في ما يختص بالاتحاد السوفياتي فمن الافضل تاخير دخوله الى ساح التفاوض اطول وقت ممكن لا سيما وان «فكرة المؤتمر الدولي غير ملائمة للمصالح الاميركية». وبالتالي فمن الافضل تجنبها.

ليست هذه الافكار مجرد صنع خيال. فعدد من موقعيها تخلوا ادارة بوش وباشروا فوراً بتطبيقها، علهم يقدرون على قرض عند من الوقائع الثابتة قبل ان تبدأ الادارة بتلقي ضغوط متناقضة من صبيان الانتفاضة والدول العربية، ناهيك عن تحفظات شطر ليس بالقليل من الادارة نفسها.

فالتقرير يدعو للتمهل في شان اجراء تفاوض اسرائيلي - فلسطيني، وهذا ما يدعو اليه الآن دنيس روس، لا سيما في الاشارة التي اعطاها لجريدة «نيويورك تايمس» عن ضرورة البدء باجراء حوار «محلي» قبل التفكير بادخال المنظمة في اللعبة. ويدعو ايضا الى ردع سورية وعزلها، والاشارات المرسلة من واشنطن الى دمشق خلال الاسابيع القليلة المنصرمة تذهب جميعاً باتجاه العداء والاستعداء، من تلميحات لدور في الارهاب، الى ما يحصل في لبنان من كلام جديد عن «الاحتلال السوري» وضرورة انهائه بسرعة.

والتقرير يدعو الى الحفاظ على تفوق اسرائيل العسكري، وبالفعل فان الاتفاقات الاستراتيجية والتصنيعية بين البلدين لم تتوقف بل نحن نشهد تطورها وتسارعها ودخولها مجال الصواريخ والصواريخ المضادة للصواريخ. ويدعو الى عملية على درجات ثلاث، الاولى محلية والثانية اقليمية والثالثة دولية. والسياسات المتبعة حالياً تقول بعدم فائدة الضغط على الاردن للدخول فوراً في اللعبة (كما كانت عليه سياسة جورج شولتز مثلاً)، فهو مهم للمرحلة الثانية والتقرير يدعو الى التقليل من اهمية مصر والى اقناعها بشتى الوسائل عن محاولة التنسيق مع منظمة التحرير. ونحن نرى حالياً تزايد الضغوط المالية الاميركية على مصر، ناهيك عن اتهامها بتصنيع الاسلحة الكيماوية.

وهناك اذن مؤشرات عديدة على ان هذه الافكار باتت تشكل صلب السياسة الاميركية في الشرق الاوسط ايام رئاسة بوش، والذين وقعوا عليها في الخريف كافراد، يحاولون تنفيذها اليوم من موقعهم الرسمي القوي والمتماسك. لكن الاعتقاد بنجاحهم امر ليس بالضرورة صحيحاً، والاعتقاد بحتمية تحقيق مشاريع كالتي وردت في التقرير، اعتقاد خاطئ اساساً لان لا شيء حتمياً في السياسة، وفي السياسة الاميركية بالذات، تلك المهووسة بالحفاظ على براغماتيتها، وعلى استعدادها الدائم للتأقلم مع الاحداث، متجاهلة ما قالته بالأمس، ومتكيفة مع احداث اليوم.

مؤشرات تحقيق افكار الكتيب اذن موجودة. تنفرش امامنا يوماً بعد يوم، ولكن امكانات تغيير المسارات المتوقعة متوافرة ايضاً امام الاطراف الاخرى. وهذه الاطراف ليست مرتبطة بالضرورة بما يراه السادة ايغلبرغر وروس وهاس ومن لف لفهم مناسباً للمصالح الاميركية. فالجولة التي قام بها شيفاردنادزه (وزير الخارجية السوفياتي) الى المنطقة، والتطبيع التدريجي لعلاقات موسكو مع القاهرة ومع الدول الخليجية، بما فيها ايران والسعودية والعلاقة المتميزة التي تربط موسكو بمنظمة التحرير، ناهيك عن الانفتاح المتدرج لشباك العلاقة باسرائيل، امثلة تدل على عدم اكتفاء موسكو بدور المتفرج المستض لهابه التحكم الاميركي المنفرد بشؤون المنطقة.

والتقرير المكتوب في مطلع كانون الاول (ديسمبر) الماضي لا يتوقع ان تقبل المنظمة شروط واشنطن باعادة الحوار معها. فاذا بالمنظمة في استوكهولم والجزائر وجنيف تقلب الطاولة على اصحابها، فتعلن قبولها بالقرارات الدولية وبالتخلي عن «الارهاب» وتدعو للتفاوض مع اسرائيل. فتضطر الحكومة الاميركية لاخذ هذا الامر بعين الاعتبار. وبدل ان يبقى التوافق قائماً داخل اسرائيل وداخل الادارة الاميركية على السواء بضرورة ابعاد المنظمة عن قاعة المفاوضات، اصبح الكلام مع المنظمة امراً قابلاً للجدل، واصبح له مؤيدوه ودعاته داخل اسرائيل وداخل الولايات المتحدة، وانكسرت بالتالي فرضية اساسية من فرضيات اصحاب الكتيب.

لكن رهان الكتاب الاساسي هو على قيام «القيادة الراشدة» في الضفة والقطاع، والقادرة على انتزاع ورقة تمثيل الفلسطينيين من يد قيادة المنظمة. هذا الرهان، هو رهان اسرائيل الحقيقي، وهو الذي يفضح علاقة هذا الكتيب بالسيد شامير واصحابه، شامير الذي اعترف منذ ايام بفشله في حواراته السرية مع الفلسطينيين المتفهمين لامن اسرائيل كرأس الاولويات. هذا الرهان هو نقطة الفصل الحقيقية، وتفشيله هو نقطة الاساس في مواجهة هذه المشاريع. فالمسالة كلها هي في تقوية العلاقة العضوية بين المنظمة وبين الانتفاضة، وطبعاً في استمرار الانتفاضة وتصعيدها.

وان تم ذلك، سيتخلى الاميركيون عن هذا المشروع، كما تخلوا في السابق عن غيره. ويتوهم بعض العرب ان هذه الافكار، لان موقعيها قد اصبحوا من هم في ادارة بوش، اصبحت افكارا مقدسة غير قابلة للنقض وما علينا الا انتظار تنفيذها ونحن مكتوفي الايدي. وعلى هؤلاء ان يتفهموا انهم امام افكار بدائية شديدة الانحياز لاسرائيل، وان السباق قائم فعلاً، داخل الادارة الاميركية، بينها وبين غيرها من الافكار الاكثر تفهما للواقع والاقل التصاقاً بالمصالح الاسرائيلية. وعليهم اساساً التأكد من ان كتب السياسة، وهذا الكتاب بالذات، لم تكن يوماً مقدسة!

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى